الفصلان الرابع والخامس

المسيحية فى مواجهة الإسلام

إن فهم تاريخ أسبانيا يتعذر دون تفهم قضية قداسة «شانت ياقب» وطقوس هذه القداسة التى امتدت فى أنحاء أسبانيا، كما امتدت إلى أوروبا عندما هب الحجاج من كل الأنحاء يتوجهون نحو القبر المقدس رابطين أسبانيا بأوروبا ومعمرين طريق الحجاج بالحياة والمبانى. إن «شانت ياقب» تلميذ المسيح المستشهد فى فلسطين، قد انتقلت رفاته بمعجزة إلى أسبانيا، تلك الأرض التى نشر فيها بنفسه المسيحية قبل غزو الإسلام لها.

إن جليقية[1] أرض لم تحظ بأهمية تذكر فى عهد الرومان والقوط. وعندما يظهر بها «شانت ياقب» كان من المتوقع أن يظل الحدث محليًا. ولكن الأمر لم يجر هكذا. إن «شانت ياقب» الذى ورد فى الإنجيل كشقيق للمسيح، يشكل لونا من الاعتقادات السابقة للمسيحية، والتى كانت تقوم على الثنائية. ولعل هذه الثنائية الإنجيلية، كانت بهدف القضاء على الثنائيات السابقة. وعمومًا فالمسيحية الأسبانية كانت غامضة فى الخمسمائة عام الأولى من الميلاد لكنها فيما بعد ستفتح الباب أرثوذوكسيا لطقوس وثنية سابقة للمسيحية.

إن العقيدة الشعبية بوجود قبر لأخ للمسيح فى جليقية، ربما كانت لا تزدهر دون محاولة إعاقة غمر أسبانيا بالإسلام. إن الغزو الإسلامى جاء، وأسبانيا المسيحية معزولة تمامًا عن باقى الأراضى المسيحية. وكانت الحيرة تحيط بالناس وهم يتساءلون: كيف يمكن إعادة مملكة المسيحية فى طليطلة؟ وإنه من المدهش أن يطلق أحفاد ألفونس الثالث (٨٦٦-٩١٠) عليه لقب إمبراطور لتوسيع رقعة المملكة الأستور ليونيه قليلا. إن لقب إمبراطور بين قوم لم يعرفوا لحكامهم غير لقب أمير أو ملك ذو مغزى إذا صار فى نفس العصر (القرن العاشر) أسقف «شانت ياقب» «بابا» للعالم. وبعد ذلك بقليل تحول العقيدة

---

(١) إحدى المقاطعات الأسبانية الواسعة التى تقع فى طرف شبه الجزيرة الأيبيرية من جهة الشمال الغربى وتضم أربع محافظات.

الشعبية «شانت ياقب» من شقيق للمسيح إلى «توأم» له، فلم لا يستحق أسقف كنيسة لقب «بابا» العالم كما استحق - حسب الاعتقادات- «شانت ياقب» نفسه مكانة أهم من القديس بدرو. ويمتد هذا الاعتقاد الشعبى فى أوروبا ومن قبلها أسبانيا لتصبح سلطة «شانت ياقب» الدينية هى السلطة الأولى فى أوروبا القرون الوسطى بلا منازع، مع عدم استناد وجود قبر «شانت ياقب» فى جليقية إلى أساس من الثّبوت التاريخى أو المنطقى. فقد بدأنا نسمع عن القبر فى القرن التاسع، وقبل ذلك لم يظهر أى خبر سوى خبر عن دور «شانت ياقب!» ما فى نشر المسيحية فى أسبانيا. عموما نشهد شيئًا مثيرًا حول مدينة شانت ياقب وشخص صاحب اسم هذه المدينة عند المؤرخين المسلمين (ابن حزم - ابن عذارى - ابن حيان) بما يفيد تحول مدينة شانت ياقب إلى كعبة تشبه فى قداستها كعبة الإسلام، إليها يهرع المسيحيون من أقاصى الأرض حتى من نوبة مصر. كذلك تشير هذه المصادر إلى ادعاء المسيحيين لأخوة هذا «الشانت ياقب» للمسيح بجانب أن هؤلاء يحلفون باسمه فى إجلال واحترام. كذلك لا يشهد التاريخ أى محاولة إسلامية لهدم قبر «شانت ياقب».

وترتفع أسهم «شانت ياقب» ودوره بجانب المسيح فى المعتقدات الشعبية حتى يعلو على دور كل التلاميذ ليرتفع - كما سبق الذكر- أسقف كنيسته هكذا إلى «بابا العالم».

***

ويمضى الكاتب - أميريكو كاسترو - بشكل مفصل ومطول فى تحقيق شخصية «شانت ياقب» وكيفية نمو عقيدته، وامتدادها، ويهدف الكاتب بكل ذلك إلى إبراز ثلاث حقائق:

١ - الحقيقة الأولى:

إن الإسلام كان له الفضل الأول فى ظهور شانت ياقب كمقابل مادى للرسول «محمد» كما صارت كنيسته مقابلاً ماديا للكعبة عند المسلمين، وبذا ارتبط الدين المسيحى - ولأول مرة فى تاريخه - بالجهاد والعسكرية، وتظهر مؤسسات دينية مسيحية ذات وظيفة محاكية لوظائف المؤسسات الدينية الإسلامية.

٢ - الحقيقة الثانية:

إن «شانت ياقب» لعب دورًا هاما فى توحيد أسبانيا كما توحد المسلمين حول الكعبة.

٣ - الحقيقة الثالثة :

إن «شانت ياقب» قد أتاح لإسبانيا أن تتصل بأوروبا، وتنفصل عنها فى نفس الوقت، بمعنى : تفاعل أسبانى أوروبى بين تأثير وتأثر ينتهى بتميز أسبانيا، وتفردها النابع من مواجهتها المباشرة مع الإسلام دون حرمانها من الاستفادة من التقنية الأوروبية الصناعية.

***

وتستمر هذه العقيدة حتى القرن الحادى عشر لتبدأ فى التمزق والتبدد إلى عقائد منتشرة عن وحدة أسبانيا، فقد انفكت إلى اعتقادات فى حشد من القديسين الآخرين ومن الملوك منذ المليكين الكاثوليكيين، ومن الأدباء والأبطال الأسبان، وتلك كلها عقائد ذات صبغة مسيحية مخلصة ويحدث ذلك دخولا فى عصر النهضة الذى قام على أساس إنسانى، وإن كان فى أسبانيا سماويًا فى إنسانيته.

***

وإذ تنتهى الحروب مع المسلمين واليهود والمرتدين عن هذه الأديان والموريسكوس يتسرب الدين إلى كل جانب من جوانب الحياة، وتمتلئ المدن والقرى بآلاف الرهبان والراهبات فى أديرة غير مترابطة، ويصبح كل رئيس دير «سيدا من الأعيان» لديره. ويتفرق الناس دون إحساس مشترك، يتجمع حول «شانت ياقب» الذى تلاشى نفوذه، فلم يعد يجمع الناس سوى الولاء لملك أسبانيا . وهذا الاجتماع حول الملك لم يمنع البرتغال من الاستقلال نهائيًا، ولم يحل بين قطالونيا وبين محاولة الاستقلال.

***

وفى القرن السابع عشر عندما تحل قداسة سانتا تريزا محل قداسة شانت ياقب لا نجد إلا عقيدة تحاول أن تقوم على أشلاء أخرى. وتتبارى العقيدتان على أسس عاطفة خالية من العقلانية بأشعار وعبارات أدبية نرى فيها التصوير الأدبى العربى يتسرب صداه مع اليأس اليهودى كما سنرى بعد.

إن كيفيدو فارس الدفاع عن شانت ياقب يستنكر استبدال عقيدة الكرمليين المؤنثين الحفاة بقديس أسبانيا الذى جلب لها النصر. هكذا يبدو الأسبانى فى القرن السابع عشر لا يستطيع التغلب على عقيدته بمعرفة للأشياء ولكفاءتها كما لم يستطع البقاء داخل هذه العقيدة بالاطمئنان القديم، و ذلك بالنظر إلى أوروبا التى شرعت فى التحرك العقلانى.

وفى ضوء ما سبق يدخل إلى الحديث عن قضيتين لهما خطورة فى التاريخ الإسلامى المسيحى عامة، ويحتاجان إلى تحقيق مستقل ومزيد من الدراسة لما يعرضه حولهما :

القضية الأولى:

إن النظم العسكرية فى الأديرة قد نشأت فى أسبانيا محاكاة للمسلمين، وعبرت إلى أوروبا ثم اختفت من أوروبا بانتهاء الحروب الصليبية فى القرن الخامس عشر لكنها استمرت فى أسبانيا بعد ذلك. وخطورة هذا الأمر أننا يمكننا أن نبنى عليه نظرية لنشأة فكرة الحرب المقدسة عند المسيحية الأوروبية تجعل من الفكرة شيئًا اختمر وتولد فى حضن إسلام أسبانيا. وهذا يلقى ضوءًا جديدا على الحروب الصليبية بل وعلى الفكر المسيحى الوسيط، وامتداداته المعاصرة فيما يتعلق بالأخذ من منجزات الحضارة الإسلامية أدوات إيجابية لتدعيم حضارة أخرى ناشئة فى مواجهتها مع الحضارة الإسلامية نفسها، وعموما هذه هى مقولات الكاتب فيما يتعلق بالحضارة الأسبانية والإسلامية خاصة فلو صح تعميمها على الحضارة الأوروبية لصح أكثر انطباقها على أسبانيا فى صراعها مع الإسلام. ويكون ذلك اختبارا دقيقًا لنظريات كاسترو.

القضية الثانية:

إن التسامح المسيحى مع المسلمين واليهود - كما بدا فى سلوك ألفونسو العالم [1] - مؤسس على القرآن فقد نظر ذلك الملك إلى المسلمين واليهود كمنافسين سياسيين ينبغى الانتصار عليهم سياسيًا وليس كأعداء ينبغى التخلص منهم وأن هذا التسامح استمر طالما رأى المسيحيون فى المسلمين مثلا يحتذى حضاريا، وعند نضج المسيحيين بفضل المحاكاة والرغبة فى التفوق زال التسامح، وحاولت عقيدة المسيحيين القيام على أنقاض عقيدة المسلمين، كما قامت بعد ذلك فى أسبانيا العقائد المسيحية على أنقاض بعضها : والمثال عقيدة سانتا تريزا تحل محل عقيدة شانت ياقب كسكرتارية سماوية لتنفيذ مطالب أسبانيا عند السماء. وخطورة هذا الأمر أن التسامح فى فترات التعايش الأسبانى السلمى يدفعنا إلى النظر إلى روح الإسلام فيه كما أن حروب أسبانيا الأهلية وخلافاتها يدفعنا إلى النظر إلى نمط الحروب الأسبانية ضد الإسلام واليهودية.

---

(١) يحمل هذا اللقب بسبب عكوفه على العلم وتشجيعه لأعمال الترجمة من العربية والعبرية إلى القشتالية ويحمل لقب ألفونسو العاشر لقشتالة وليون. وقد حكم فى الفترة من ١٢٥٢ إلى ١٢٨٤م.

وهذا ما يشير إليه الكاتب فعلا فى تفسيره للحرب الأهلية المعاصرة (٣٦ - ٣٩) واعتبارها حربا بين عقيدتين. وهذا التفسير يكمن فى تصور الكاتب لحلم عالمى غامض عند كل أسبانى فى ممارسته للتدين، وهو حلم مستحيل، هذا الحلم يتناقض مع فكرة التعصب للكنيسة الأسبانية، والدفاع عنها، ومع ذلك فهذا الأسبانى لا يرى حلمه الغامض يتحقق إلا إذا تعرضت الكنيسة للخطر، فيهب للدفاع عنها حتى الموت دفاعا عن حلمه. ولذلك عندما يلتقى هذا الحلم مع عقيدة أخرى تحققه بشكل غامض يهب لفرض هذه العقيدة الجديدة بدفع أجنبى، وخلف سلطة الحكومة التى تعادل الكنيسة أحيانا، إذا توجه نحوها الاعتقاد، فيشعر الأسبان الآخرون بالخطر على الكنيسة وعلى حلمهم العالمى (بدفع أجنبى أيضًا)، فتدور الحرب الأهلية بين من يرى حلمه يتحقق فى الدفاع عن الكنيسة وبين من يرى حلمه يتحقق فى فرض العقيدة الجديدة على يد الحكومة، وبعد سنوات من الصراع تنتهى عام ١٩٣٩ تنتصر الكنيسة ولكن بدماء ومذابح لا تشبهها فى القسوة إلا دماء ومذابح الحرب المقدسة ضد المسلمين.

وهكذا نرى صيغ الحياة الأسبانية تحتذى النموذج الإسلامى وتنهض فى مواجهته حربا وسلما. وإن الحياة الروحية الأسبانية ليست بمنأى عن الإسلام فى نسيجها الذى يمكن متابعته فى ثلاثيته: إسلام - مسيحية - يهودية، فى صيغ فريدة كما ستعرض السطور الآتية.